﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾

[الفجر: 1 - 4]

❁ مناسبةُ مَطْلعِ السّورةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من الوعيد بالعذاب الأكبر لمن تولّى وكفر إلى بيان أمثلة تاريخيّة عليه

لما خُتِمت سورة الغاشية بالأمر بالتّذكير المُجرّد عن السّيطرة والرّقابة والمتابعة، وأنَّ من لا يستجيب لدعوة الحقّ فيتولّى ويكفر، فإنَّ الله يتولّى عذابَه، وجاء في ختام السّورة الوعيد بأنَّ الإياب والمرجع إليه سبحانه، ثمّ بعد ذلك يكون الحساب؛ ناسَبَ أن تبدأ السّورة التّالية لها في ترتيب المصحف بالقَسَم بالزّمان، فبدأت بمطلع اليوم وهو الفجر، ثمّ ثنّت باللّيالي العشر، وبالشّفع والوتر، ليكون القَسَم توكيدًا للوعيدِ الذي أوعد الله به مَن تولّى وكفر، من العذاب الأكبر، ويُعزِّز هذه المناسبة ذِكرُ مجموعةٍ من الأمثلة التّاريخيّة على تعذيب الأمم السّابقة كعاد وثمودَ وفرعونَ، التي لحقها بسبب تولّيها وكفرِها عذابُ الله الأكبر، ثمّ الحسابُ الأشدّ في الآخرة، فهو انتقال من الوعيد الإجماليّ في نهاية الغاشية، إلى القَسَم بالزّمن الذي يدعو العاقل إلى التّأمّل، ومعرفة ما أصاب الأممَ السّابقة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾: أصلُ (شفع) يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَيْنِ، تقول كان فردًا فشفعتُه، أي: صيّره زوجًا[1]، والشَّفْعُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه، والشَّفعُ من العددِ ما كان أزواجًا[2]، والشَّفعُ: هو الزَّوجُ[3]، والشّفع

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفع).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شفع).
(3) الرّاغب، المفردات: (شفع).

خِلاف الوَتْر، ومقابلٌ له. و(الشَّفْعِ) في الآية بمعنى الأشياء كلّها، فيكون عطف (الوَتْرِ) من تمام المعنى، أي: شفعِها ووترِها، وقيل: المراد بالشَّفْعِ يوم الأضحى أو أيّام الشّفع في أيام عشر ذي الحِجَّة، وقيل: الشّفع هو الخَلق[1]؛ لأنَّه تعالى خلق من كلِّ شيءٍ زوجين.

2) ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾: الوِتْرُ والوَتْرُ: الفَرْدُ، والوِتْرُ: واحدٌ، والوَتْرُ في العدد مقابلٌ للشّفع. تقول كان فردًا فشفعتُه. ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ في الآية هو من تمام القَسَم بجميع الأشياء شفعِها ووترِها كما تقدَّم. وقيل: هو يوم عرفة، أو أيّام الوتر من ذي الحِجّة، وقيل: هو الله تعالى لأنَّه وِترٌ، أي: فرْدٌ[2].

3) ﴿يَسْرِ﴾: السُّرَى: سَيْرُ اللَّيْلِ، يُقالُ: سرى وأسرى، ومنه سَرَوْت وسَرَيْت الثّوب عنّي، أي: نزعته؛ لأنَّ الثّوب يُحيط بالجسم، والسُّرَى: سير اللّيل كلّه. و﴿يَسْرِ﴾ في الآية بمعنى يمضي[3]، أو يُسْرَى فيه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأزمـــان وعـــاءُ دَلائـــل بَـديـعِ صُنْعِ الله، وهي أوقـــات أفـعـال البرِّ وعبادة الله

افتتح الله تعالى هذه السّورة بالقَسَم بما هو دالٌّ على قدرتِه وتوحيده، فأقسَم بالفجر المعروف، وهو الوقت الذي ينشقُّ فيه الضّوء، وينفجر النّور، وبليالٍ عشرٍ وهي العشرُ الأوَلُ من ذي الحِجَّة، وبالزّوج والفرد من هذه اللّيالي، فهو سبحانه أقسم باللّيالي جملةً، ثمَّ أقسم بما حوته من زوج وفرد. أو يكون قد أقسمَ بشفع كلِّ الأشياءِ ووترها، وأقسمَ باللّيل وقتَ سيرِه ومضيّه. ثمّ قرَّرَ فخامةَ الأشياء التي أقسم بها قبلُ، وكونَها أهلًا لأنْ تُعَظَّمَ، فبيَّنَ

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 526، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 343.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 343.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 439.

على أسلوب الاستفهام التّقريريّ: أنَّ مَن كان ذا عقل ولُبٍّ يفطَن إلى أنَّ في القَسَم بهذه المخلوقات المشتملة على باهر الحِكمة، وعجيب الصّنعة، الدّالّة على وحدانيّة صانعها، مقنعًا أيّما مقنعٍ، وكفايةً أعظم كفاية[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ افتتاح السّورة بالقَسَم:

التّوطئة لتقرير عظيم المعاني ولفت الأنظار إلى ما سيأتي من الأخبار

القَسَم بالشّيء يدلُّ على استحسانه وتعظيمه، والأشياء التي أقسم الله بها لا بدَّ وأن يكون فيها إمّا فائدةٌ دينيَّة مثلُ كونها دالَّة على التّوحيد وعلى البعثِ يوم القيامة، وإمّا فائدةٌ دنيويَّة توجِبُ بعثًا على الشّكر، وإمّا أن يكون فيها مجموعُ الفائدتين، وهو الغالب[2].

والمَقْصودُ مِنْ هَذا القَسَم في قوله ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ وما بعدَه، تَحْقيقُ المُقْسَم عَلَيْه؛ لأنَّ القَسَمَ في الكَلام مِنْ طُرُقِ تَأْكيدِ الخَبَرِ إذِ القَسَمُ إشْهادُ المُقْسِم رَبَّهُ على ما تَضَمَّنَهُ كَلامُهُ. وقَسَمُ الله تَعالَى متمحِّضٌ لقصدِ التّأكيدِ والتّقرير. ولمّا كان الكلامُ موجَّهًا إلى النّبيِّ ﷺ كما دلَّ عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾؛ دلَّ على أنَّ القَسَمَ يُقصَدُ به أوّلًا وبالذّاتِ التّعريضُ بتحقيقِ حصولِ المُقسَم عليه بالنّسبة للمُنكرين[3]. كما يُقصَد به تقريرُ مضمونِ القَسَمِ والمقسَم عليه عند عمومِ المخاطَبين.

دلالة تقديم القَسَم بالفجر على غيرِه:

مناسبة ما يُبدأ به اليوم لما بدأ به السّورةَ

قُدِّم القَسَم بالفجر على غيره في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾؛ لأنَّ الفجر نعمة جسيمة، وله شرافة عظيمة، والفجر انفجار الصّبح كلَّ يومٍ، وهو مَظْهَرٌ عَظيمٌ مِنْ مَظاهِرِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 638، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 30/ 140 - 142.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

وبَديعِ الصُّنْعِ، فالفَجْرُ ابْتِداءُ ظُهورِ النّورِ بَعْدَما تَأْخُذُ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ في الِانْصِرامِ، ولمّا كان الفجرُ ابتداءَ اليوم؛ ناسبَ أن يكون كذلك ابتداءَ القَسَم به دونَ غيره.

سبب إيثار القَسَم بالفجر على الصّبْح:

الـفـجـر أنـسـب لزمان الإسلام، فـهـو انـفـجـارٌ نـورانيّ في حياة الظّلم والظّلام

لمّا جاءت سورةُ الفجر بعد سورة الغاشية التي كان من أهمِّ مقاصدِها بيانُ أنَّ البعثَ واقعٌ وحاصلٌ؛ ناسبَ القَسَمُ بالفجر دون الصّبح في السّورة التي تلتها؛ لأنَّ الفجر هو انفجار ضوءِ النّهار من اللّيل، فالفجر مشاكِلٌ لبعثِ الموتى ونَشْرِهم منَ القُبور حيثُ تنتشر الحيوانات لاسيّما الإنسان، وينبعث النّيامُ من النّوم إلى الانتشار في ضياء النّهار في طلبِ المعاشِ والأرزاق، لِمَن تأمّل، فيكون في اختيار لفظ الفجر إشارةٌ إلى البعثِ من القَبور للمجازاة في الحساب بالثّواب أو العقاب[1]. وفي إيثار القَسَم بالفجرِ إشارةٌ كذلك إلى فجرٍ جديد بهذا القرآن للحياة، ودعوةٌ مجدّدةٌ للأحياء أن يكتحلوا بهذا النّور، وأن يكون لهم ضياءٌ يعملون به.

معنى تعريف لفظ (الفَجْرِ):

الـفـجـرُ أعـظـمُ الأوقات في اليوم وأشرُفها وأبرَكها

تعريف لفظ (الفَجْرِ) للجنس، ويدلُّ عليه مناسبةُ عطفِ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ عليه، فيدخل فيه فجرُ كلِّ يوم[2]، فالقَسَم متكرِّرٌ مستمرٌّ بكلِّ فجرٍ يأتي، والمراد وقتُ انفجارِ الصّبح الصّادق والكاذب، ويحتمل أن يُراد به الفجرُ الصّادق، فهو أحرى بالقَسَم به، وهو الفجر المستطير الذي ينتشر عرضًا في الأفق، وهو الوقت الذي يدخل به صلاة الفجر، ويَحْرم الطّعامُ على الصّائم.

ويجوز أن تكون (أل) للعهد، فيراد بالفجر فجرٌ معيَّنٌ، فقيل: أُريد به وقتُ صلاة الفجر من كلِّ يوم، وهو مرويٌّ عن قتادة، وفيه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 148.
(2) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 1199.

إشارةٌ إلى تفخيم شأنِ صلاة الفجر، بتفخيم وقتِها وتعظيمِه. وقيل: فجرُ يوم النّحرِ، لمناسبة عطف ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عليه، وهوَ الفَجْرُ الَّذي يَكونُ فيهِ الحَجيجُ بالمُزْدَلِفَةِ، وهذا مرويٌّ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ وعَطاءٍ وعِكْرِمَةَ[1].

مناسبة عطف اللّيالي العشر على (الفَجْرِ):

الفجر يُقابل اللّيلَ باعتباره مبدأ النّهار ويُقابل اللّيالي العشر على اعتبار يوم النّحر

ناسب عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ على (الفَجْرِ)؛ لما أنَّ الفجرَ وقتُ انتهاءِ اللّيل، فبينَهُ وبين اللّيل جامعُ التّضاد[2]، وهو من مناسبات العطف بالواو، ويمكن أن يقال: إنَّ الجامع بين المعطوفين خياليٌّ في الجمع بين ما هو في المألوفِ والعادة؛ فإنَّ اللّيل مظهر من مظاهر القدرة الإلهيَّة، وهو مثل الفجر في كونِه زمانًا، فلمّا أُريد عطف (اللَّيْلِ إذا يَسْرِ) على (الفَجْرِ) خُصَّت قبلَ ذِكرِه بذِكر اللّيالي العشر المباركة، إذ هي من أفراد اللّيل. وإن كان الفجر يُقصَد به فجرُ يومِ النّحر، فيكون الجامعُ بين المعطوف والمعطوف عليه خياليًّا[3]، كما هو ظاهر. لتقاربِهما في الوقت. فإنَّ فجر يوم النّحر يلي ليلتَه.

نُكتة القَسَم بـ(لَيالٍ عَشْرٍ):

شرفُ الزّمن يدلُّ على شرفِ ما فيه من أعمالٍ صالحةٍ

أقسم تعالى بليالٍ عشرٍ في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾؛ لإفادة تعظيمِها وتفخيمِها وبيان شرافتِها. وشرافةُ الزّمن تدلُّ على شرافةِ ما يُعمَل فيه من أعمالٍ صالحةٍ، ولمّا دلَّ القَسَمُ على شرافة زمن هذه اللّيالي، وكان الزّمن غيرَ مختصٍّ بمكانٍ دونَ آخر، أفاد أنَّ كلَّ من تَمرُّ عليه هذه اللّيالي قادرٌ أن ينتفع منها بالعمل الصّالح فيها.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 476، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 409، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 246، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 246.

فائدة تنكير (لَيالٍ):

اللّيالي العشر قليلةٌ في العامِ، ولقلّتها المتضمّنة شرفَ العمل نالت التّعظيم

أفاد تنكيرُ (لَيالٍ) تعظيمَ هذه اللّيالي وتفخيمَها وتشريفها؛ لتخصيصِها بفضائل ليست في غيرها؛ ولأنّها معيّنات معلومات. وقد يقال: التَّنكير منافٍ للتّعيين. فكيف يقال: إنَّ المرادَ بها ليالي العشر الأوَل من ذي الحِجَّة؟ وأجيبَ بأنَّها لشرفها وعِظمها صارت معلومات في الذّهن، فلم تُحتَجْ إلى تعريف وتعيين[1].

وذهب الزّمخشريّ إلى أنَّ التّنكير للتّقليل، بمعنى: تقليل وقتِها فهي أيّامٌ عشر مخصوصةٌ من بين جنس اللّيالي، فهي بعضٌ قليل من اللّيالي الكثيرة من ليالي السَّنةِ؛ ليَدُلَّ التّقليلُ على فخامتِها وشرافتِها كذلك[2].

عِلّةُ تنكير ليال خلافًا لبقيّة المذكورات:

عددُ اللّيالي أغنى عن تعريفها لتنالَ الفضيلةَ والشّرف

جاء لفظُ (الفَجْرِ)، و(الشَّفْعِ)، و(الوَتْرِ)، و(اللَّيْلِ إذا يَسْرِ) معرفةً، إلّا (لَيالٍ عَشرٍ)؛ فلم يُجمَع بينها وبين بقيَّة المعطوفات بالتّعريف؛ وذلك لأنَّ اللّيالي العَشر معروفةٌ معلومة، مختصَّة بليالٍ معيَّنة، فلمّا عُرِفت بعددها أغنى ذلك عن تعريفِها باللّام، فيُتوصَّل بترك التّعريف إلى تنوين اللّيالي وتنكيرها؛ فيُتحصَّل المقصودُ الأهمّ المناسبُ للسّياق، وهو تعظيمها وتفخيمها[3].

وفي تنوّع المُقسَم به بين التّعريف والتّنكير تفنُّنٌ في البيان، كما أنَّه لمّا كان الجمع ثقيلًا لكثرتِه، ناسبَ تخفيفُه بتنكيرِه؛ لأنَّ تنكير الجمع أخفُّ له من تعريفِه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّها وإن جاءت نكرةً فإنَّها لعظمتِها وشُهرتِها صارت معلومةً معروفةً لا تحتاج إلى تعريف.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 264.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 746.
(3) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 611، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

غرض تقييد اللّيالي بعدد عشر:

أعظمُ عشرِ ليالٍ متتابعاتٍ عشرُ ذي الحِجّة

أفاد تقييد اللّيالي بعدد عَشْرٍ في قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ التّعيينَ، وتعيينُها قاد إلى بيان عظمتها وشرفها، فليس في ليالي السّنة ليالٍ متتابعاتٌ عظيمة مثلَ عشرِ ذي الحِجّة، فالعمل فيها أكثرُ ثوابًا، وهي وقت مناسكِ الحجِّ، ففيها يكون الإحرام ودخولُ مكَّةَ وأعمالُ الطّواف، وفي ثامنِها ليلةُ التّروية، وتاسعها ليلةُ عَرَفة، وعاشرها ليلةُ النّحر، فتعيَّن أنَّها اللّيالي المُرادة بليالٍ عشرٍ[1].

نُكْتَة القسَم بالشَّفعِ والوَتْرِ:

القسَم بالشّفع والوتر - وهما عرفة والنّحر - فيه مزيدُ تعظيم للّيالي العشرِ

جملة المعطوفات هي من جنس الزَّمان، وهو ما يومئ إلى أنَّ (الشَّفْعِ والوَتْرِ) قِطَعةٌ من الزّمن؛ ليكون المعطوف من جنسِ المعطوفات، وأقربُ هذه القِطَعِ أن تكون جُزءًا من اللّيالي العشرِ، شفعًا ووترًا، أو يكون المقصودُ منها يومَ النَّحرِ ويومَ عرفةَ[2]، وهو زمانٌ معلوم، فأقسم سبحانه باللّيالي العشرِ جملةً، ثمَّ أقسمَ بما حوته من زوج وفَرْد، وقد أكثر المفسّرون في بيان المراد من الشّفع والوتر، وتفسيرُها بيوم النّحر وعَرَفة أنسبُ الأقوالِ؛ ليُجانِسَ المذكورات الزّمانيّة، ويُناسبَ اللّيالي العشر، إذ هما جُزء منها، فإنَّ القَسَم بالشّفع والوتر اللّذَين هما يوم عرفة والنّحر، يزيد من تعظيم اللّيالي العشر؛ لتخصيص بعضها بالقسَم، وبعدَها القول بالعمومِ، ليَعُمَّ وجودُهما الزّمانَ كلَّه، فيأتي على كلِّ شفعٍ ووتر.

معنى تعريف لفظ ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾:

احتمال الخصوص العهديّ والعموم الاستغراقيّ

تحتمل (أل) في اللّفظين ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ أن تكون عهديَّةً، على أن يكون المرادُ منَ الشّفع والوَتر عَرَفةَ والنّحر، ويحتمل أن تكون للاستغراق، فتُفيد التّعميمَ، فالشّفع والوتر يعمّان كلَّ شفعٍ ووترٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 490، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 153.

ممّا يعظَّم من الأشياء[1]؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ لا بدَّ أن يكونَ شفعًا أو وترًا، فيكون القَسَم بالشّفع والوتر كنايةً عن القَسَم بجميع المخلوقات لعدم خُلوِّها عنهما. وبالجملة فإنَّ قَسَم الله تعالى بالشّفع والوتر يدلُّ على تعظيم الخالقِ وحُسْنِ تدبيره وبديعِ حِكمتِه، في أن أوجدَ الزّوجيَّة والفرديَّة في الأشياء.

نُكْتَة تقديم (الشَّفْعِ) على (الوَتْرِ):

توجيه التّقديم مبنيٌّ على التّفسير وتابعٌ لمقتضاه

قُدِّمَ القَسَمُ بـ(الشَّفْعِ) على (الوَتْرِ) من باب تقديم النّحر على عرفة على أشهر التّفاسير، أو من باب تقديم الكثرةِ على القِلَّة؛ فإنَّ الشّفع زوج، والوتر فرْدٌ، والمقام مقام تعظيم وتفخيم، فناسبَ تقديمُ الكثرةِ على القول بالاستغراق، كما أنَّ في التّقديم رعايةً للفاصلة ورؤوسِ الآي المناسبةِ لطرقِ القَسَم في القلوب.

معنى تعريف لفظ (اللَّيْلِ):

المراد كلُّ ليلةٍ من ليالي الأيام العشر

(أل) في (اللّيل) للجنس، فلا يقصد به ليل معيَّن، بل المراد جنس اللّيل، فيقتضي العموم، ويدخل فيه كلُّ ليلة من ليالي الأيام[2].

دلالةُ تقييدِ اللّيل بكونه ﴿إِذَا يَسْرِ﴾:

في ذهابِ اللّيلِ وظلمته إشارةٌ إلى ذهاب الظّلْمِ ومجيء النّورِ وهدايته

لمّا قُيِّد القَسَمُ باللّيل بقيد ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ دلَّ على أنَّ المراد ليس عمومَ اللّيلِ، بل بوصفِ وقتِ سيرِه ومُضيِّه؛ ليكونَ القيدُ موضعَ ظهورِ عظَمة القَسَم وشرفه؛ لِما في سَرى اللّيل من الإشارة إلى التّعاقب بين اللّيل والنّهار، ففي سرى اللّيل إشعارٌ بوضوح الدّلالة وقوّتها على كمالِ قدرة الله تعالى، وإيماءٌ إلى وفورِ النِّعمةِ على المخلوقاتِ وكثرتها[3]، وفي ذِكر قيد ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ تصويرٌ لحركة اللّيل يسير ظلامًا حتّى ينقضيَ بالضّياء المبتدئ، ففي تسييره على المقادير المرتَّبةِ فيهِ،

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 421.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 495، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 746.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 151.

ومجيئِه بالضّياء عند تقضّيه في الفصول أدلُّ دليلٍ على أنَّ فاعلَه يختصُّ بالحِكمةِ والاقتدار الذي يَجِلّ عن الشّبيه والنّظير[1]، كما أنَّ فيها إشارةً إلى ذهاب ليلِ الظّلم، ومجيءِ فجرِ النّور والحقّ والخير، وهو ما يتناسب مع أحوال النّزول.

دلالة استعمال ﴿إِذَا﴾:

﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ جُرِّدت للظّرفيَّة، فلا تتضمّن معنى الشّرط[2]، وأوثِر استعمالُ ﴿إِذَا﴾ للدّلالة على الاستمرار في كلِّ وقتٍ يكون فيه ليلٌ، والمقصود أنَّه كلَّما وُجِد اللّيل فإنَّه يسري، أي: هذا هو شأن اللّيل، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّيل مهما طال زمانُه في شعور المظروف فيه فسَيسري، ويأتي من بعده فجرٌ صادق، كما أنَّ في ورود ﴿إِذَا﴾ إشارةً إلى أنَّ سرى اللّيل معلَّقٌ بقدرة قادر، وأنَّه إنّما يسري بحِكمةٍ وسُنن ثابتة، لا بأهواء النّاس ومطامعِهم ومصالحهم أو رغباتهم، وهو المناسِب للقسَم المُنْبِئ بالتّعظيم.

ذهابُ اللّيل إنّما يكون بالسُّنن لا بما تشتهيه الأنفس

نُكْتَة الاستعارة المكنيّة في لفظ (اللّيل):

في لفظ (اللّيل) المقيّد بقيد ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيثُ شُبِّه اللّيل الذي يسري ويمضي بسير شخصٍ ومُضّيه في اللّيل[3]، ونُكْتة الاستعارة تشخيصُ اللّيل وبيانُ أنَّ له حركةً ثابتة.

تشخيصُ اللّيل وبيانُ أنَّ له حركةً ثابتة

بلاغة الاستعارة التّصريحيّة في لفظ ﴿يَسۡرِ﴾:

معنى ﴿يَسۡرِ﴾: يمضي سائرًا في الظلام، أي: إذا انقضى منه جُزءٌ كثير، فشُبِّه تقضّي اللّيل في ظلامه بسير السّائر في الظّلام، وهو السُّرى، كما شُبِّه في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾ [المدثر: 33]، وقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضّحى: 2]، أي: تمكَّنَ ظلامُه واشتدَّ[4]، فتشبيهُ

ذهابُ اللّيل أمرٌ حتميٌّ، والعبرة بالصّبر على ظلامه وظلمته

(1) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 3/ 211.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 206.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 336.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 315.

ذهابِ اللّيل بالسَّرَى الذي هو سير السّائر في اللّيل، استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، ففيه إشارةٌ إلى أنَّه يتحرَّكُ في مسيرته، والأحياء نيام لا يشعرون به، كما يتحرَّك الذين يسيرون فيه دونَ أن يشعُر بهم أحد[1].

بلاغة الإسناد المجازيّ:

إن كان المراد بسير اللّيل سيرَ أهله فيه[2]؛ فيكون إسنادُ الفعل ﴿يَسْرِ﴾ إلى اللّيل على طريق المجاز العقليّ؛ للإيذان بملابسة الفعل للزّمان وهو اللّيل؛ ليكون من قبيل قولِهم: ليلُه نائمٌ ونهارُه صائم[3]، والذي يظهر أنَّ المراد هو سير اللّيل وذهابُه، وأمّا السّائرون فيه فهو من دلالة اللّزوم، ويحتمل أن يكون من قبيل المجاز المرسل، بذِكر الزّمان وإرادةِ الحالِّ فيه وهو أهلُه، والمعنى مع الذي قبله واحدٌ.

سيرُ اللّيل هو سير ما فيه من النّاس والأحوال وتقلّبات الزّمان

نُكْتَة التّعبير بصيغة المضارع ﴿يَسْرِ﴾:

في التّعبير بصيغة المضارع ﴿يَسْرِ﴾ إشعارٌ بتجدّد سُرى الليل واستمرارِه، وفيه كذلك تصويرٌ لحالة سراه، فإنَّ سير اللّيل وذهابَه أمرٌ سننيّ لا يتوقّف، بل يتجدّد ويدوم.

تجدّد سُرى اللّيل واستمرارُه، وتصوير لحالة سراه

لطيفة حذف الياء في لفظ: ﴿يَسْرِ﴾:

حُذِفت الياءُ من ﴿يَسْرِ﴾ في الخطِّ؛ لأنَّها رأسُ آية وفاصلة، والفواصل تُحذف منها الياءات، وتدلُّ عليها الكسرات؛ لأنَّ كلَّ ما يوقَفُ عليه يَسقطُ إعرابُه، فحذفها تخفيف لاعتدال رؤوس الآي[4]. ومن لطائفِ حذف الياء أنَّ في حذفِها إشارةً إلى لُطف سُرى اللّيل وانقضائِه بهدوء ورويَّة، بخلاف سير النّهار الذي يكون فيه حركةٌ

سُرى اللّيل خفيف هادئ سريع، فناسبَه حذفُ الياء

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 16/ 1549.
(2) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/ 3289، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 746.
(3) البهاء السّبكي، عروس الأفراح: 1/ 142.
(4) النّحاس، إعراب القرآن: 5/ 136، والواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 496، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 477.

واضطراب في العيش. وفي خفاء الحرف وحذفِه إشارةٌ إلى مَحوِه تعالى صرفَ اللّيل، وإلى خفاء ما يقع فيه، بخلاف النّهار.

نُكْتَة تطويل القَسَم:

جاء القَسَم بالفجر واللّيالي العشر والشّفع والوتر واللّيل إذا يسر؛ للتّشويق إلى المُقسَم عليه[1]، مع الإشعار بمزيد أهميّتِه، والتّنبيه على الاعتبار به.

التّشويق إلى المُقسَم عليه، والإشعار بأهميّتِه، والاعتبار به

بديع التّرتيب في المُقسَم بهنَّ:

بدأ القَسَم بالفجر المناسبِ لِما سبقه من الحديث عن الغاشية، فكلاهما انبعاثٌ ونشرٌ للخَلْقِ، وفي الفجرِ إشارةٌ إلى كمالِ قدرتِه تعالى وتعظيمها ووفورِ نعمتِه على الخَلْقِ وتفخيمها، والمقصودُ النّعمةُ الدّنيويّة بظهور النّور وانبعاثِه، ولتتكسَّبَ الحيواناتُ لاسيّما الإنسان، ثمَّ جاء ذِكر اللّيالي العشر على سبيل المقابلة، في إشارةٍ إلى تفخيم هذه النّعمة، فهي أعظمُ ليالي السّنة، والعملُ الصّالح فيها ليس كمثلِه في سائر العام. وفيه إيماءٌ إلى كمالِ قدرتِه في تخصيصِ هذه الأيّام ووفور نعمتِه الأخرويَّة، ثمَّ جاء ذِكرُ الشّفعِ والوترِ تأكيدًا لمزيد الاعتناء بها، أو تفخيمًا لِبديع صنعِ الله، وتخصيصه الأعداد بالشّفعِ والوتر، ثمَّ جاء ذكر اللّيل إذا يسرِ، لمزيد التّأكيد والاعتناء بهذه الحالةِ التي هي مظهرٌ عجيبٌ من مظاهر قدرتِه تعالى وبديعِ حكمتِه، وفيها كذلك نعمةٌ عظيمةٌ على الخَلْقِ. وختم بذِكر اللّيل إذا يسرِ في إشارة إلى تعاقب الفجر واللّيل على الخلقِ في رحلة الزّمان في هذه الأرضِ.

بدأ بالفجر وختم باللّيل حالَ انقضائه؛ ليكونا كالحلقة المُفرغة ابتداءً وانتهاءً

وخلاصةُ التّرتيب: أنّه بدأ بالفجر الذي هو بداية النّهار، ثمّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 313.

بليالٍ عشر التي هي جزءٌ شريف من الزّمان، ثمّ بالشّفع والوَتر، على القول الأشهر بأعظم أيام العام، أو بكلّ المخلوقات، ثمّ باللّيل عند انقضائه؛ ليرجعَ إلى الفجر، فما بعد ذهاب اللّيل إلى مجيءُ الفجر، فهي متعاقبةٌ في المبدأ والمنتهى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفجر والصّبح:

الـفـجـرُ دالٌّ عـلى الانبـعـاث والـتّـفـتّـح، والـصّـبـحُ دالٌّ عـلى أوّل ضوء النّهارِ

الصَّباحَ أوّلُ نورِ النَّهارِ، ولمّا كان أصل الصّبح يدلُّ على لون الحُمرة - حتَّى قيل سمّي الصّبح صبحًا لحُمرتِه - أُطلق الصّبح على وقت احمرار الأفق بحاجب الشّمس، ففي لفظ الصّبح إشارةٌ إلى الضّوء الذي يكون في أوّل النّهار، فيقع به الإسفار، وأمّا الفجرُ فأصلُه من التّفتّح في الشّيء، ومنه انفجارُ الماءِ من العين، والفُجْرَةُ: مَوْضِعُ تَفَتُّحِ الماءِ[1]. وقيل: هو من شقَّ الشَّيءَ شقًّا واسعًا[2]، فقيل: للصّبح فجرٌ؛ لكونه فجرَ اللّيل وشقَّه، فالفرقُ بينهما من جهة الاشتقاق دالٌّ على مورد استعمال كلٍّ منهما، فإن كان الغرض هو الانبعاث والتّفتّح عُبِّرَ بالفجر، وإن كان الغَرَض التّعبيرَ عن أوّل ضوء النّهارِ الذي يكون به الإسفار عبّر بالصّبح. ولهذا قال في سورة الفجر ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ في إشارة إلى البعثِ، وقال: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء: 78] في إشارة إلى أنَّ القرآن يكون به تفتّحُ النّفوسَ وبعثُها إلى الحياة. بينما قال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾ [المدثر: 34]؛ لأنَّ الإسفار هو انتشارُ لونِ الضّوء، ومثلُه قولُه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ [التّكوير: 18]، وتمدَّح في آيَةٍ أُخْرَى بكَوْنِهِ فالقًا له، فقالَ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: 96]، أي: فالق أوّل ضوء النّهار.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (فجر).

السُّرَى والذَّهابُ:

المـضيّ في اللّيل سـرى، وفـي أيّ وقت ذهاب

السّرى ذهاب مقيَّد بكونِه في ليل، وأمّا الذّهاب فهو مطلقٌ ولا يختصُّ بليلٍ، فعبّر بقولِه ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾؛ لأنَّ المضيَّ في اللّيل هو سرى.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-69-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-69-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"